

من أسباب صلاح القلوب (4) طلب العلم الشرعي



حسان أحمد العماري

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 11/4/2025 ميلادي - 13/10/1446 هجري

الزيارات: 1606



من أسباب صلاح القلوب:

(4) طلب العلم الشرعي

الخطبة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِهِ الله، فلا مضلَّ له، ومن يضلل، فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70، 71].

أما بعد أيها المؤمنون:

فتُصاب القلوب بأمراض حسية وأمراض معنوية، والأمراض الحسية تؤدي إلى الموت وفقدان الدنيا، أما الأمراض المعنوية - وهي أشد خطورةً - تؤدي إلى خسران الدنيا والآخرة: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11]، وللأسف فالناس في هذا الزمان يهتمون بعلاج الأمراض الحسية أكثر من اهتمامهم بالأمراض المعنوية، وإن من أسباب صلاح القلوب طلبَ العلم الشرعي؛ قال ابن رجب معرفًا بهذا العلم: "فالعلم النافع هو ضبط نصوص الكتاب والسُّنة وفهم معانيها، والتقيُّد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق، والمعارف، وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغلٌ لمن بالعلم النافع عُنِيَ واشتغل..."، وقال ابن حجر: "والمراد العلم الشرعي الذي يفيد ما يجب على المكلف من أمر دينه في عبادته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه".

معاشر المسلمين:

العلم الشرعي هو ميراث النبوة، وعلى قدر حظ الناس منهم يكون حظهم من وراثة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى قدر ذلك يكون صلاح القلوب والأحوال، ومن هنا فإن طلب العلم أغلى ما أُنفقت فيه أعمار البشر وأموالهم، وإن لحظةً ينفقها الإنسان في عمره لا يستفيد فيها علمًا، ولا يقصد فيها إلى طاعة، لَجدير بأن تطول عليها حسرته؛ ولهذا لم يأمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن يزدادوا من شيء شيئًا، إلا أن يزدادوا من العلم؛ فقال جل وعلا في سورة طه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، ورفع الله أهل العلم على سائر المؤمنين لِما حصَّلوه من العلم؛ فقال جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، فكل مؤمن يرفعه الله جل وعلا بإيمانه، وكل صاحب علمٍ صحيح من أهل الإيمان، فإنه مرفوع على غيره درجاتٍ، وهذا من فضل الله جل وعلا على أهل العلم، ومن وُفِّق لهذا العلم، فقد وُفِّق لأعظم أسباب زيادة الإيمان، ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة علِم ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 162].

عباد الله:

إن طلب العلم الشرعي والتفقُّه في الدين من أسباب صلاح القلوب، وذلك من عدة أوجه؛ نذكر منها:

إن طلب العلم الشرعي يعصم القلوب بتوفيق الله من الانحراف والضلال، ويحميها من الوقوع في البدع والمحدثات، والشركيات والضلالات، ويحملها على تعظيم الشعائر والحرمات، والتجافي عن المنكرات والموبقات، بخلاف العابد الجاهل، فإنه قد يقع في شيء من هذه المخالفات بسبب جهله، وربما يتقرب إلى الله بما لم يأذَن به الله، كحال عبَّاد النصارى، ومن شابههم من جهلة عبَّاد المسلمين، الذين يتعبدون بالبدع والمحدثات، أو يتقربون إلى أصحاب القبور بأنواع القربات، ويشركون بالله تعالى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28].

ومن ذلك: أن العلم نور يهدي إلى الحق، وينير الطريق للسالكين، وبه يميَّز بين الإيمان والكفر، والمصلحة والمفسدة، والخير والشر، بل يُعرف به خير الخيرين وشر الشرين، وعلى قدر علم الإنسان وفقهه، وقوة بصيرته، وسعة أفقه، ومعرفته بواقعه، يكون حكمه على الأحداث من حوله، وإدراكه لكيفية التعامل معها، ونظره إلى عواقبها ومآلاتها، ومتى يُقدم، ومتى يُحجم، ومن يعادي، ومن يسالم؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]؛ ولذلك جعل الله الناس على قسمين؛ إما عالم أو أعمى؛ فقال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: 19].

معاشر المسلمين:

وتأملوا المقابلة بين أصحاب القلوب المريضة والقاسية، والذين أوتوا العلم المخبتين؛ في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 53، 54]؛ يقول ابن القيم: "وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الوجود وروحه، لا يُستغنى عنهم طرفة عين... فالعلم للقلب مثل الماء للسمك، إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياء، والأذن الصماء، واللسان الأخرس؛ ولهذا يصف الله أهل الجهل بالعُمي والصم والبكم، وذلك صفة قلوبهم؛ حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصَممها وبكمها: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72]، والمراد عمى القلب في الدنيا"؛ [مفتاح دار السعادة].

ومن ذلك: أن طلب العلم الشرعي والتفقه في الدين يقود قلب صاحبه لأن يكون لله شاكرًا، وله ذاكرًا، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور، منعمًا قلبه بمناجاة الرحمن، يعد نفسه مع شدة اجتهاده خاطئًا مذنبًا، ومع الدأب على حسن العمل مقصِّرًا، لجأ إلى الله عز وجل فقويَ ظهره، ووثِق بالله فلم يخَفْ غيره، فهو مستغنٍ بالله عن كل شيء، ومفتقر إلى الله في كل شيء، أُنْسُه بالله وحده، ووحشته ممن يشغله عن ربه، إن ازداد علمًا خاف توكيد الحُجَّة، مُشْفِقٌ على ما مضى من صالح عمله ألَّا يُقبَل منه، همُّه في تلاوة كلام الله الفَهم عن مولاه، وفي سنن الرسول صلى الله عليه وسلم الفقه؛ لئلا يضيع ما أُمر به، متأدب بالقرآن والسنة، لا ينافس أهل الدنيا في عزها، ولا يجزع من ذلها، يمشي على الأرض هونًا بالسكينة والوقار، ومشتغل قلبه بالفهم والاعتبار، إن فرغ قلبه عن ذكر الله، فمصيبةٌ عنده عظيمة، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم، فخسران عنده مبين؛ قال الله عز وجل: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 107 - 109]؛ [كتاب أخلاق العلماء للآجري].

ومن ذلك: أن العلم الشرعي مهذِّب للنفوس؛ فالعلم يهذب الأخلاق، ويربي صاحبه على اكتساب الفضائل والآداب؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: "**ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا**"، فقال ابن أبي مليكة رحمه الله: "**ما** رأيت مثل ابن عباس، إذا رأيته، رأيت أحسن الناس وجهًا، وإذا تكلم

فأعرب الناس لسانًا، وإذا أفتى فأكثر الناس علمًا".

ومنها أن العلم الشرعي سبب لحياة القلوب وصلاحها، فهو علم مرتبط بالله وأسمائه وصفاته، وبالنبي صلى الله عليه وسلم وبمنهجه وسيرته، وأحكام الدين وتشريعاته، وبالعلماء والمحدثين، والدعاة والوعاظ؛ قال لقمان لابنه: "يا بني جالِسِ العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب الميتة بالحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بمطر السماء:

والجهل داء قاتل وشفاؤه   أمران في التركيب متفقانِ

نص من القرآن أو من سُنة   وطبيب ذاك العالم الرباني

والعلم أقسام ثلاث ما لها   من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله   وكذلك الأسماء للدَّيَّانِ

والأمر والنهي الذي هو دينه   وجزاؤه يوم المعاد الثاني

والكل في القرآن والسنن التي   جاءت عن المبعوث بالفرقانِ

والله ما قال امرؤ متحذلق   بسواهما إلا من الهذَيانِ

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم؛ فاستغفروه.

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، والصلاة والسلام على رسوله الداعي إلى رضوانه، وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

أما بعد أيها المؤمنون:

فإن طلب العلم الشرعي طريق إلى الجنة، وأي دواء أصلح وأنجع للقلوب من التعلق بالآخرة، وبجنة الله ورضوانه؛ فتستقيم في هذه الحياة؟ وطالب العلم إذا سلك هذا الطريق، فإن الله يسهل له به طريقًا إلى الجنة؛ كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ((**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة**))، وذلك أن طريق الجنة يكون بصحة الاعتقاد، ويكون بصحة العمل، وصحة الاعتقاد لا تكون إلا بعلم، وصحة العمل لا تكون إلا بعلم؛ وقال صلى الله عليه وسلم: ((**ألَا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم**))؛ [صحيح الجامع]؛ قال عليٌّ رضي الله عنه لكميل بن زياد: "يا كميل، العلمُ خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم، والمال محكوم عليه".

فاحرصوا - رعاكم الله - على طلب العلم والتفقه في الدين، تصلح قلوبكم وتستقِم حياتكم، وتُرفع درجتكم، وتسلكوا الطريق إلى جنة ربكم، هذا، وصلوا وسلموا على أُمرتم بالصلاة والسلام عليه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].
